

.. الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

لولا أن الله تعالى يدفع كيد الكافرين ومكرهم وظلمهم وعشمتهم بجهاد طائفة من المؤمنين ونضالهم ورباطهم؛ لصارت الأرض كلها غابة موحشة تعوي في حناتها الذناب، ولعل هذه الحقيقة بعض ما توحى به هذه الآية الكريمة(1): (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (الحج 40) وهي الآية التي ختم الله تعالى بها قصة طالوت، الملك الذي اختاره الله لبني إسرائيل فحاض بهم الصراع مع جالوت الطاغية ويبدو جليا من سياق الآية الكريمة أنها تكشف عن سنة من السنن الإلهية الماضية، يمكن أن نسميها: سنة الدفع، كما كشفت عنها أية أخرى مشابهة لها في سورة الحج: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج 40)؛ هذه السنة هي التي يحفظ الله بها عباده من الانسحاق تحت مطارق الصراع الأزلي الأبدي بين الحق والباطل؛ لذلك ختمت الآية الأولى بقوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)، وبقدر ما يحسن أهل الحق إدارة الصراع يكون مستوى اندفاع الباطل واندحار أهله؛ ولذلك ختمت الآية الثانية بقوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

لكن اللافت للنظر أن سنة الدفع جاءت في سورة البقرة مسبوقة بذكر داود والإشارة إلى ما شرفه الله به: (وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) (البقرة 251)؛ فهل سيكون لداود دور في إرساء قواعد إدارة الصراع؛ ليتحقق أعلى معدل للدفع؟ أجل؛

سيكون له دور كبير، وسيكون لولده أيضا دور لا يقل عنه في عظمته وإلهامه فما هي قواعد إدارة الصراع حسبما يتضح من قصة النبيين العظيمين داود وسليمان عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام؟

وقد جاء الجزء الأكبر والأكثر إثارة من القصة في سورة ص؛ جاء مسبوقةً بآيات تقرر سنة في الخلق تُعدُّ هي الأساس السابق لسنة الدفع، وهي سنة التدافع، التدافع بين الحق والباطل، ذلك التدافع الأزلي الأبدي الذي لا يفتر وليس من طبيعته أن يفتر أو يهدأ، فتامل سياق الآيات: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِجَارَةً حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (5) وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ أَنْ هَدَاهُمْ خُرَافِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ الْعَزِيزِ (8) مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ الْوَهَابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فُوقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (ص 1-17) (17) (16) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عِبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّ الْبَاطِلَ وَأَهْلَهُ فِي عِزَّةٍ وَمَغَالِبَةٍ وَشِقَاقٍ وَمَنَازَعَةٍ، والملا منهم والكبراء يستحثون الأتباع الأذلاء أن يمضوا في عدائهم وحرابهم للحق وأهله، وأن يصبروا على الارتباط بالهتهم والاعتصام بها؛ بزعم أن دعوة الحق وراءها شيء يراد وعرض يُدبَّر له، وهذا الذي يمضون فيه هو دأب الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد، وكسائر الأحزاب الذين طغوا في البلاد؛ لأنها سنة ماضية لا تتخلف، سنة التدافع بين الحق والباطل، والصراع الدائم

بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ولأن إدارة الصراع فنُّ له قواعده وأصوله ختمت الآيات بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مراجعة سيرة داوود ذا الأيد (أي: القوة) والقوة تشمل القوة في الدين والقوة في الدولة والحكم وأدوات الإكراه، فقد كان داوود عليه السلام أواباً كثير الرجوع إلى الله وكثير التردد للذكر، وهي خلة لا تكون إلا مع قوة الدين وعظمة اليقين، وقد بلغ من شدة الاتصال بالله تعالى أنه كان إذا سبح الله سبحت معه الجبال والطير، وإلى جانب ذلك كان ملكه مشدوداً قويا بالقوة والحكمة وفصل الخطاب، فاجتمع له أمران ضروريان في خوض الصراع ضد الباطل: القوة والقدوة، ولكي تتم القدوة استدرك عليه الوحي في قصة التحكيم بالأ يتبع الهوى وأن يحكم بين الناس بالحق لأنه خليفة في الأرض . بمنهج الله تعالى

إن الحكم الرشيد العادل خلافة في الأرض بمنهج الله، وأنه في صراع دائم مع الباطل، لذلك وجب أن يجمع بين القوة والقدوة، فلا القوة تدفعه لتجاوز الحد ولا القدوة تثنيه عن الإعداد واستكمال أدوات خوض الصراع، ومن هنا كان وصف الله تعالى لمحمد رسول الله والذين معه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (الفتح 29)؛ فمثلهم في التوراة يبرز القدوة ومثلهم في الإنجيل يبرز القوة؛ فاجتمع لهم القوة والقدوة، فبالقوة يواجهون أهل العناد وبالقدوة يهدون قلوب العباد

إن دولة الحق والعدل قدوة لجميع الدول في حماية الحريات وحقوق الإنسان، وفي إقامة العدل بين الناس، وفي تعظيم شعائر الله ومناسك الدين، وهي في ذات الوقت تحوز القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعلمية وتواجه القوة بالقوة وتدفع البغي والعدوان بما لا يندفع إلا به من أسباب الإكراه المادي، فلا قوتها تغريها بالظلم والعدوان، ولا تمسكها بالقدوة والاستقامة يريدها في مستنقع الذل والهوان، وبهذين: القدوة والقوة تنجح في إدارة الصراع مع قوى الباطل.